نحو مقاربة أنتروبولوجية لظاهرة الانتحار في المجتمع الجزائري...

أ/ عجّال سلامي
قسم العلوم الاجتماعية
جامعة الجلفة

ملخص باللغة العربية:

الموت الإرادي ليس نتيجة لأمراض نفسية أو اجتماعية فقط، إنه حقيقة أخلاقية في تفسير ظاهرة الانتحار، البحث عن المعنى الرمزي، هو أكثر فائدة من الدراسات الكمية.

المقاربة المقترحة هنا، هي أكثر توجها نحو الأنتروبولوجيا الثقافية من علم النفس وعلم الاجتماع، إلى حد أنها تساعدنا في الكشف عن المعنى الكامن وراء الفعل الانتحاري.

هذا الموضوع هو محاولة لملء الفراغ المعرفي حول موضوع الانتحار في بلادنا وتقديم رؤية جديدة لفهم هذه الظاهرة في المجتمع الجزائري.

مقدمة:

لكل مجتمع، وفي كل مرحلة من تاريخه قابلية معينة للانتحار، كل مجتمع مستعد لتقديم حصة محددة من الذين يموتون إراديا. هذا ما تبيّنه - على الأقل- الحقائق التاريخية والمعطيات الإحصائية في كل المجتمعات[1].

ومنذ أن اعتبر إميل دوركايم(Emile Durkheim) * الانتحار فعلا اجتماعيا، ظلت وإلى يومنا هذا، التصورات الدوركايمية حول الانتحار تمثل الإطار المرجعي الأمثل والمفضل ونقطة الارتكاز المحورية، لكثير من البحوث والدراسات حول الانتحار في مختلف المجتمعات الإنسانية. وظلت التحليلات السيوسيولوجية تركز على البحث في الارتباطات بين معدلات

[1] Émile Durkheim, Le suicide,13 éme éd, Puf, Paris, 2007. P10.

* إميل دوركايم(Émile Durkheim) 1858- 1917: عالم اجتماع فرنسي، مؤسس المدرسة السوسيولوجية الفرنسية. محور تحليله في دراسة الانتحار، أنّ هناك تناسبا عكسيا بين التكامل الديني والعائلي والسياسي للفرد وميله للانتحار وأكد على دور التصورات الجمعية في حياة المجتمع.

الانتحار، في مجتمعات مختلفة وفي ظروف معينة، ببعض المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية المتعلقة بمستوى الغنى، الطبقات الاجتماعية، الممارسات الدينية، والبناءات العائلية... هذه الدراسات كانت تصبو إلى وضع إطار نظري في الروابط الاجتماعية وتفسر الانتحار على ضوء هذه الروابط، أو بالأحرى بضعف هذه الروابط.

وبخصوص واقع البحث في المجتمع الجزائري، في هذا المجال، فرغم كل التجاذبات النظرية والإبستيمولوجية الصارمة التي يشهدها الحقل المعرفي حول موضوع الانتحار (منذ دوركايم إلى يومنا هذا)، ورغم الصعوبات المطروحة في طريق البحث حول هذا الموضوع الشائك، إلاّ أنّ ذلك لم يثن كثيرا من الباحثين الجزائريين عن محاولة الغوص في أعماق هذه الظاهرة، واكتشاف العوامل المختلفة التي تؤدي إلى هذا السلوك.

إنّ دراسة وتحليل ظاهرة "الانتحار" في المجتمع الجزائري، تكتسي أهميتها البالغة من حيث هي مظهر بارز من مظاهر التغير الاجتماعي الحاصل، خاصة منذ نهاية ثمانينيات ومطلع تسعينيات القرن الماضي، في خضم متغيرات سوسيو- ثقافية جديدة أفرزت أنماطا من السلوكات والظواهر الاجتماعية السلبية والشاذة والتي قد يؤدي تفاقمها وانتشار مداها إلى عواقب وخيمة، تؤثر في كيان الفرد ومجتمعه على حد سواء.

كما أنّ ظاهرة الانتحار في الجزائر أصبحت تمثل حقيقة اجتماعية ذات أبعاد ثقافية اجتماعية وتاريخية... متداخلة وعميقة يصعب فرزها وتحديد المتغيرات التي تحكم عناصرها. كما أن أسبابها وموجباتها والعوامل المغذية لها تظل غامضة ويحتاج فهمها وفك خيوطها إلى وقت وجهد كبيرين بسبب تعدد جوانبها، في مقابل نقص المعرفة العلمية والمنهجية المتخصصة حول هذا الجانب من مجتمعنا الجزائري.

واقع الانتحار في المجتمع الجزائري:

إنّ بروز وانتشار ظاهرة الانتحار، والتي كانت تعتبر ظاهرة نادرة ومعزولة في المجتمع الجزائري، ولكنها أصبحت في المدة الأخيرة في تزايد مستمر من عام إلى آخر*. وكباقي الآفات الاجتماعية، فهو (الانتحار) مرتبط حسب الأخصائيين (علماء الاجتماع، علماء النفس، الأطباء، والهيئات الرسمية المختلفة ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية في المجتمع...) بالأزمة المتعددة الأوجه التي يمر به مجتمعنا، في ظل التغيرات والتطورات البنيوية العميقة

* قرابة 7000 حالة انتحار سنويا في الجزائر، تمثل الفئة العمرية (15- 35 سنة) نسبة 50%. منها 73% ذكور و27% إناث.

والعنيفة في بعض الأحيان التي يمر بها المجتمع، والتي تمثل مجالا خصبا لنشأة مثل هذه الظواهر وتطورها.

ويرجع المختصون هذه الظاهرة في المجتمع الجزائري، إلى أسباب نفسية كالاختلالات النفسية والعصبية التي تحدث نتيجة هزات وأزمات عنيفة قد تؤدي بالأفراد إلى الانعزال والانطواء على النفس أو الإدمان والانتهاء بالتفكير في وضع حد لحياتهم والتخلص من أحزانهم وآلامهم بالانتحار. أمّا الأسباب الاجتماعية فهي ناتجة عن التفكك الأسري وعدم وجود جو أسري عادي وحوار كاف بين أفراد الأسرة، مما يدفع بالأطفال والمراهقين إلى العزلة بسبب عدم تحقيق طموحاتهم إضافة إلى الأسباب الناتجة عن احتكاك الطفل بالعالم الخارجي كمجموعات الزملاء والأصدقاء والرفاق في المدرسة وخارجها[2].

كما أن بعض أسباب انتحار بعض الراشدين والكبار ترجع إلى عدم الاستقرار العائلي والاجتماعي والمهني (التسريح من العمل، البطالة، الضغوطات المهنية، أزمة السكن...). وتشير بعض هذه الدراسات إلى عوامل أخرى كالسياسية (الأزمة الأمنية التي عرفتها الجزائر منذ التسعينات).

ورغم أنّ المجتمع الجزائري يصنف ضمن أضعف المجتمعات إقبالا على السلوك الانتحاري، إلاّ أنّ ذلك لا يجعله بمنأى عن تزايد تبعات هذه الظاهرة واتساع مدى خطورتها على المجتمع وأفراده. فظاهرة الانتحار في المجتمع الجزائري، هي في أمس الحاجة أكثر من أيّ وقت مضى إلى تضافر كل الجهود العلمية والسياسية والاجتماعية، من أجل تكوين إطار معرفي ملائم يسمح بإلقاء الضوء على جوانب مهمة من الموضوع، وفق مقاربات أكثر شمولية وعمقا، تمكن الباحثين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم البحثية من ملاحظة وفهم جوانب أخرى وعوامل ومتغيرات ظلت وإلى يومنا هذا مجهولة أو مهملة من طرف الباحثين وأقصد بها العوامل البنائية- الثقافية التي لا يمكن لأية محاولة جادة لفهم هذا الموضوع، أن تتجاوزها أو تجعلها في درجات أدنى من مسببات الانتحار المعروفة.

المقاربة الأنتروبولوجية للانتحار:

الانتحار سلوك بشري قديم جدا، وجد منذ أن عرف الإنسان معنى الحياة والموت. ودراسة الانتحار بين المجتمعات البدائية والمتوحّشة القديمة، يساعد على تفهم مشكلة الانتحار بصفة عامة. لكن قلة الدراسات عن هذه المجتمعات تعيق الباحثين نوع ما، إلا أنّ "شتانهيتن" وهو

---

[2] جمال معتوق، قراءة سوسيولوجية لظاهرة الانتحار في الجزائر، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولوجية، جوان 2007. ص201.

أحد أبرز علماء الأجناس، بموضوع الانتحار، وكان رأيه أنّ ميل البدائيين والمتوحشين إلى الانتحار أكثر من المتحضرين.

ولعلّ أدق الدراسات الأنتروبولوجية، هي دراسة "كوتي وويسي" عن أربعمائة مجتمع بدائي في جميع أنحاء العالم، فلقد توصلا إلى أنّ الثقافات القديمة والمجتمعات البدائية دليل لتعزيز الرأي القائل بأن الانتحار قديم قدم العنصر البشري وعريق عراقة الموت، وبداية اعتبار الانتحار إثما وفعلا مستهجنا وشنيعا كان في القرن الخامس الميلادي عندما هاجم القديس أوغسطين Saint Augustin الانتحار. فقد وجدت المسيحية صعوبة بدأ انتشارها عندما تماست ثقافتها مع البدائيين. عموما فإن الرجل البدائي لا يهاب الموت، والانتحار بالنسبة إليه ليس أمرا طبيعيا فحسب بل نهاية مرجوة لوجوده على الأرض.

ففي الهند كانت الزوجة الهندوسية تقدم على الانتحار بعد ممات زوجها تأكيدا لحبها ووفائها له. وللأسرى الشرف في الانتحار، وكذا الخدم ينتحرون عند وفاة أسيادهم ليدفنوا معهم في مقبرة واحدة. وهناك بعض الأديان مثل البوذية اليابانية تقر بالفعل الانتحاري طلبا لحياة أخرى، فهو ليس رفضا للحياة بل سعي إلى حياة أفضل[3].

وفي القرن التاسع عشر ظهرت دراسات عن الانتحار أدت إلى ظهور علم جديد هو "علم الانتحار" (Suicidologie)، بقيادة الأمريكي "شنيدمان"، كما ظهرت مراكز عالمية ومحلية للوقاية من الانتحار. وأيا كان الأمر فالانتحار ظاهرة طبيعية في سلوك الإنسان تحدث في المجتمعات والثقافات وإن كانت تختلف في تقييمها واستنكارها له، إلا أن الانتحار يسهم بشكل مقلق في تدمير الطاقات الإنسانية بوجه عام[4].

ورغم أنّ كل الديانات السماوية تحرّم الانتحار (فالحياة مقدسة وهي منحة إلهية)، إلاّ أنّه يرتبط بثقافة كل مجتمع، فالثقافة هي المسؤولة عن الشكل الرئيسي لشخصية الأفراد في أي مجتمع وباختلاف الثقافات تختلف أشكال الشخصية.

انطلاقا من هذا، لقد أوجد التراث الأنتروبولوجي الممتد إلى أكثر من قرن من الأبحاث الميدانية في أغلب المجتمعات الإنسانية (في الماضي والحاضر) تصورا شموليا (holistique)، وفق مقاربات نظرية ومنهجية مناسبة لدراسة موضوع الانتحار.

---

[3] Pierre Moron, Le suicide, Puf, Paris, 1999. p 09.

[4] بن عمارة الميسوم، ظاهرة الانتحار في الجزائر: أسبابها وآثارها على المجتمع، قسم التعليم العالي، المدرسة العليا للدرك الوطني، وزارة الدفاع الوطني، الجزائر. 2006/2005. ص1.

الثقافة والانتحار:

إنّ فهم وإدراك ثقافة المجتمع المحيط بالمنتحرين، يعتبر نقطة ارتكاز أساسية لأي باحث يريد سبر أغوار هذه الظاهرة وفهم معانيها بالنسبة إلى المنتحرين وأيضا إلى أفراد المجتمع. فالمنتحر هو حامل لثقافة مجتمعه (أو جماعته)، ولا بد أنه يحمل نفس تصورات هذا المجتمع ومواقفه من خلال مجموعة معقدة من القواعد والمعايير والمبادئ التي تعمل كموجهات عامة للفعل الإنساني[5].

ولا بد لأيّ مجتمع أن يقدم لأفراده الآليات والأدوات والطرق التي تجعله يتكيف بشكل سليم أو ينحرف عن القيم والمعايير التي تفرضها ثقافة المجتمع.

ومما لا شك فيه أن الثقافات تختلف اختلافا كبيرا بين شعب وآخر، وعلى ذلك فلا يجب أن يعتبر الانتحار لا على وجه الخصوص ولا بالدرجة الأولى كحادثة فردية بل كحادثة تخضع لرقابة العادات والمواضعات الاجتماعية. ومنه فإننا نلاحظ تقابلا وثيقا بين كثرة الانتحار بصورة عامة وبين الموقف الذي تتخذه الجماعة جملة تجاه الانتحار. فمصير المنتحر بعد موته أمر ينظر إليه بصورة مختلفة باختلاف الجماعة، وهذا ما يساهم- بلا أدنى شك- في تحديد نسبة الانتحار.

إسهامات الأنتروبولوجيين:

لقد اهتم الأنتروبولوجيون الأوائل الذين دأبوا على دراسة الإنسان البدائي (l'homme primitif) ببحث الأبعاد العدوانية للفعل الانتحاري، كانتحار الإناث في بعض المجتمعات، أمثال برونسلو مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski :1884- 1942)، المشهور بأعماله حول الميلانيزيين (les Mélanéziens)، والذي بيّن بعد ما روى بالتفصيل انتحارات استعراضية لنساء شابات، أنه في جزر تروبرياند (les iles Trobriand) يوجد دافعان لهذا السلوك:

التكفير عن ذنب (خطإ)، وأيضا احتجاجا وانتقاما ضد من عاقبوا المذنب أمام الملإ.

وقد أدّى الاهتمام المتزايد بين علماء الأنتروبولوجيا بالنواحي السيكولوجية في الثقافة إلى ظهور اتجاه قوي لدراسة الشخصية في علاقتها بالثقافة عن طريق تحليل العلاقة بين الثقافة والفرد، أو على الأصح دراسة أثر الثقافة في تكوين الشخصية، وقد اشترك عدد كبير من الأنتروبولوجيين الثقافيين الأمريكيين في هذه الدراسات وخاصة كلوكهوهن (Kluckhohn)

---

[5] دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.2007، ص61.

ومارجريت ميد (Margaret Mead) وجورير (Gorer)... واتبعوا في هذه الدراسات نفس الوسائل والمناهج المستخدمة في دراسة موضوع الثقافة والشخصية، كما اعتمدوا كثيرا على نظريات فرويد (Freud) ويونج (Jong) ونظرية الجشطلت (Gestalt)، وسيكولوجيا التعليم... ولقد كان لروث بنديكت (Ruth Benedict) فضل كبير في التأكيد أنّ السلوك الإنساني في أيّ ثقافة لا يمكن فهمه على أفضل وجه إلا في ضوء القيم والمثل والاتجاهات العامة التي تسود في هذه الثقافات بالذات (كتاب أنماط الثقافة)[6].

ويمكن الإشارة ولو بشكل سريع إلى بعض الإسهامات المهمة التي قدمها الأنتروبولوجيون في تطوير الآليات البحثية لمقاربة الانتحار، فمنهم من اتجه إلى مساءلة المجتمع بكل فئاته حول هذا الفعل، وهو الاتجاه السائد في البحث الأنتروبولوجي حول الظواهر المتعلقة بالمجتمع الحديث لمعرفة الثقافة الاجتماعية المحيطة بالظاهرة (محل الدراسة)، وهو اتجاه متجذّر - بطبيعة الحال - في الأنتروبولوجيا الكلاسيكية منذ بداياتها الأولى.

ويمكن الإشارة في هذا السياق، إلى أعمال بعض الأنتروبولوجيين المحدثين حول الانتحار:

Pascale Bonne Mére وMaurice Godelier في غينيا الجديدة، Charles Macdonald في الفيليبين، Paul Bohanan في إفريقيا.

وحسب المؤرخين والأنتروبولوجيين الصينيين، فإنّ هذه الممارسة (انتحار النساء) موجودة بكثرة في المجتمع الصيني بين الزوجات، للانتقام من الظلم والاضطهاد العائلي. أمّا في إفريقيا، فقد دلّت الدراسات الإثنولوجية كدراسة (Paul Bohanan) على علاقة الانتحار بالبناء القرابي (les structures de la parenté)، وكثيرا ما يعبّر الانتحار عن صعوبات يواجهها الأفراد في الشبكات السلالية (lignagers réseaux). ومنه فالإثنولوجي الذي يريد دراسة هذه الظاهرة ميدانيا مطالب بالأخذ بعين الاعتبار التمثلات والتصورات ((représentations) الجماعية التي تتوافق مع المعلومات الميدانية التي يقدمها بعض الإخباريين، واكتشاف المعاني والدلالات (significations) الأخلاقية والثقافية المرتبطة بالانتحار في الأوساط الاجتماعية المختلفة.

ففي دراسة حول الانتحار في سنغافورة (Singapour)، بيّن عالم الاجتماع الأسترالي Riazhassan، أنّ اختلاف معدلات الانتحار بين الجماعات الإثنية الثلاث التي تشكل المجتمع الماليزي وهي: الصينية، الهندية، الماليزية، ترجع إلى اختلاف الفلسفات الدينية والنظرة إلى الوجود (العالم) الخاصة بهذه الجماعات.

---

[6] احمد أبو زيد، محاضرات في الأنتروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1978.ص88.

أمّا الانتحار في الصين فهو ينتظم حول قيم أساسية تتمثل بالنسبة إليهم في حب الوالدين، الوفاء للعائلة، العفة (الطهارة) واحترام الكبير... عندما يكون الانتحار هو الوسيلة الوحيدة لاحترام هذه القيم الأخلاقية، ففي هذه الحالة يكون مقبولا وشرعيا.

أمّا الهنود فيظهرون أنهم متسامحون نسبيا مع الانتحار "إذا كان الجسد يموت، فالروح لا تموت" (Si le corps est mortel, l'âme est immortelle). أمّا في الدين الإسلامي وهو دين المجتمع الماليزي، فإنّ الانتحار يعتبر معصية لله.

وقد وضع Charles Macdonald حوصلة لهذه الأفكار عند الـ Palawan واهتم بالسلوك الانتحاري المقرر ثقافيا والذي هو بالضرورة سلوك ذو خصوصية كبيرة مرتبطة بقيم ثقافية (عكس ما هو موجود عند الـ Palawan) وهو ما يسميه دوركايم بالانتحار الغيري، الذي يتعلق بفعل مقرر دينيا وسياسيا، ويوجد في سياسة المواجهة الحربية مع شعب آخر والتي لا يسميها كريستيان بودلو (Christian Baudelot) انتحارا بل قتلا انتحاريا (homicide suicidaire) أو جريمة انتحارية (meurtre suicidaire)، فعل مقرر بقيم ثقافية، ويختلف كثيرا عن الانتحار الفردي بدوافع شخصية، فالأول هو فعل مؤسساتي (مؤسسات ثقافية، أخلاقية، قانونية...) أمّا الثاني فهو فعل فردي مرتبط بعوامل (نفسية، عقلية...)[7].

إنّ من أهم الإسهامات **المنهج الأنتروبولوجي ودراسة الانتحار في المجتمع الجزائري:**

التي يقدمها هذا النوع من المقاربات، أنها تقدم نظرة تكاملية وشاملة لمختلف النظم والظواهر والحقائق الاجتماعية التي تحيط بالفعل الانتحاري في المجتمع الجزائري وذلك في ارتباطاتها بالمناخ الثقافي والاجتماعي من جهة، والجانب الإيكولوجي والبيئي من جهة ثانية وأيضا بالجوانب الشخصية المتعلقة بالفعل السلوكي والتي تسمى الخصوصيات المزاجية للأفراد المنتحرين.

ومن هذا المنطلق، فلقد تعددت المقاربات المنهجية والتقنية التي توظفها أنتروبولوجيا الانتحار، انطلاقا من تعدد فروع الأنتروبولوجيا في حد ذاتها. وهناك بعض المناهج العامة التي تشترك فيها الأنتروبولوجيا مع فروع عديدة من العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى وحتى البيولوجية والطبيعية... سيما في مجال الدراسات الثقافية والاجتماعية، حيث يحصل الاشتراك والتعاون بين الباحث في الأنتروبولوجيا، والباحثين في علم الاجتماع أو النفس أو السياسة أو الاقتصاد... في دراسة الانتحار.

---

[7] Christian Baudelot, suicide, seuil, paris, 2006. p 09.

كما تقدم الأنتروبولوجيا أيضا لدارس موضوع الانتحار في المجتمع الجزائري الآليات والأدوات البحثية الميدانية، التي يمكن أن تتناسب مع خصوصيات هذه الظاهرة المعقدة، وأيضا مع طبيعة المجتمع المبحوث، فالمنهج الأنتروبولوجي يوفر للباحث إمكانات التموقع بشكل جيّد في هذا المجال البحثي المعقد.

على الأقل، أنّه لا يفرض عليه الصرامة العلمية المعروفة في كثير من العلوم المجاورة الأخرى، والتي قد تثقل كاهله في بعض مراحل البحث، خاصة وأنّ الأمر يتعلق بظاهرة يعتبر الخوض فيها من طرف فاعليها وحتى المحيطين بهم من أهل وأقارب وأصدقاء... من أبغض المواضيع وأكثرها إثارة للاشمئزاز والنفور، بدليل أنّ كثيرا من حالات الانتحار لا يتم التصريح بها من طرف عائلة المنتحر، خوفا من ردود الفعل التي يبديها أفراد المجتمع بسبب الفضيحة والعار الذي قد يجلبه هذا السلوك لهم، مما يضفي عليهم نوعا من الأسى والحزن والندم عن الوضعية التي آلوا إليها، ربما بسبب الإهمال واللامبالاة والتفريط في معرفة المشاكل التي كان يعاني منها المنتحر.

ومن هذا المنطلق تعتبر القدرة على ربط علاقات جيّدة مع أفراد الوسط المبحوث، مفتاح العمل الأنتروبولوجي الميداني حول الانتحار[8]، فهذه الخطوة تمكّن الباحث من العمل بأكثر حرية واطمئنان، ففي حالة الانتحار، لا يتسنى للباحثين دائما الوصول إلى عائلات المنتحرين وأقربائهم والمحيطين بهم بسهولة بسبب حالة الحزن والألم، والقلق التي تنتابهم، فالموت انتحارا ليس كالموت بأسباب أخرى، وهنا الحذر مطلوب من الباحث عند الخوض في غمار هذا الموضوع، ويتطلب منه ذلك قدرة فائقة على التعامل بشكل إيجابي مع هذه الظروف الحساسة جدا.

الملاحظة:

يعتبر العالم الأنتروبولوجي برونسلو مالينوفسكي، أوّل من وضع أسس وقواعد الدراسة الحقلية ومتطلباتها، وذلك في كتابه المشهور Argonauts Of Western Of Pacific والذي نشره عام 1992[9]. ومن أبرز هذه الأساليب ما يسمى بطريقة الملاحظة بالمشاركة Observation (Participante)، والتي تعتبر أداة مهمة وفعالة في الدراسات الثقافية الميدانية. ويتطلب هذا الأسلوب ضرورة إقامة الباحث في مجتمع البحث، لكي يكون قريبا من الجماعة أو المجتمع المدروس.

---

[8] Christian fauré, après le suicide d'un proche, Bpi, France 2007. p63.

[9] محمد حسن غامر، الثقافة والمجتمع، opu، الجزائر، 1989. ص134.

وفي حالة الانتحار، فإنّ هذه الطريقة تمكن الباحث من ملاحظة وتسجيل كل ما يتعلق بموضوع البحث بشكل مباشر ودون تدخل المحيط تفاديا لأي تحريف أو تزييف للحقائق والمعطيات.

ففي دراسة الانتحار في الوسط العائلي مثلا، تمكن الملاحظة بالمشاركة- والتي يسميها فريدريك لوبلاي (Frédéric Leplay) بالملاحظة المونوغرافية للعائلة- [10] الباحث من فهم جوانب مهمة تتعلق بالتنظيم العائلي، وطريقة حياة العائلة والعلاقات الاجتماعية داخلها، وإمكانياتها المادية، وتوزيع الأدوار والوظائف بين أفرادها، ومكانة الرجل والمرأة والكبير والصغير... وكذا ملاحظة مكان السكن (المحيط الفيزيقي) وكيفية توزيع الأفراد فيه، والأشخاص الغرباء الذين يترددون على العائلة وكل النشاطات التي يقوم بها الأفراد في الوسط العائلي في مختلف المناسبات والاحتفاليات الدينية والاجتماعية وما يرافقها من طقوس وممارسات... والمشاكل أو الصعوبات اليومية التي يعانون منها، وكيفية تعاملهم مع هذه الظروف...

هذه الخطوة تمكن الباحث من فهم الطريقة التي يؤثر بها المحيط العائلي على السلوك الانتحاري، انطلاقا من أنّ العائلة هي المجال الأول الذي يتعلم فيه الفرد موجهات السلوك.

ملاحظة المحيط:

قد يتعذر على الباحث الولوج إلى عمق أسرة المنتحر، للأسباب التي تم التطرق إليها سابقا. وفي هذه الحالة يلجأ إلى ملاحظة المحيط الاجتماعي والثقافي والفيزيقي الذي كان يعيش فيه المنتحر. ويتمثل البناء الثقافي في الدين، العادات، التقاليد وكل الممارسات الثقافية... التي يمكن أن تكون ذات علاقة بالسلوك الانتحاري في ذلك المجتمع: كالرموز، الأساطير، الفن... هذه الخطوة تسمح للباحث بفهم علاقة هذا المحيط الاجتماعي بالتنظيم العائلي الذي يسود في هذا المجتمع وكيفية تأثيره بطريقة أو بأخرى على تصورات الأفراد ومعتقداتهم وعلاقتها بالميل نحو السلوك الانتحاري.

فدراسة الانتحار، بهذا الشكل تسمح للباحث بفهم المنتحر من خلال الجماعة التي يعيش بداخلها، وبعيدا عن التغيرات النفسية والفردية، يمكنه فهم المحتوى الثقافي والاجتماعي للسلوك الانتحاري في هذا المجتمع.

[10] Jacques Hamel, Étude de cas et sciences sociales, Éd, harmattan, canada, 1997. p19.

مساءلة المحيط:

للإجابة عن التساؤلات المطروحة من قبل الباحث حول موضوع الانتحار، يجب الاتصال بكل من بإمكانه المساهمة في توضيح مختلف الجوانب المتعلقة بالشخص المنتحر والظروف التي حدث فيها الانتحار... وهؤلاء هم عادة أصدقاؤه وجيرانه أو زملاؤه في العمل... ويمكن هنا أن نطرح بعض الأسئلة كالتالي: كيف كانت حالته منذ زمن معين؟ هل لوحظت عليه تغيرات سلوكية معينة؟ كأن ينزوي في مكان معين في المنزل أو خارجه؟ كم كانت تستغرق هذه العملية من الزمن في هذا المكان؟ كيف كانت علاقاته مع الآخرين (الأقارب، الأصدقاء، الجيران...)؟ كيف كانت نظرته إلى الحياة (تفاؤلية، تشاؤمية...)؟ هل تحدث عن أشياء خاصة أو غريبة عشية الانتحار؟ هل كان يتحدث عن موضوع الانتحار؟ هل كان يفضل أشياء معينة دون غيرها (كاللباس، الأكل...)؟...

تقنية سيرة الحياة (histoire de vie):

يستخدم كثير من الباحثين الأنتروبولوجيين هذه الطريقة أثناء الدراسة الميدانية، وتتخلص في تدوين أهم الأحداث التي تمر في حياة أفراد المجتمع موضوع الدراسة، وفي حالة الانتحار فإن سيرة حياة المنتحرين أو محاولي الانتحار، تعتبر مرحلة مهمة في الحصول على المعطيات الضرورية التي تسمح بتتبع المراحل العمرية للمنتحرين وأهم الأحداث التي عاشوها والتي قد تكون ذات تأثير مباشر أو غير مباشر في اتخاذ قرار الانتحار.

كما تمكّن الباحث من معرفة جوانب مختلفة عن الحياة الاجتماعية والأسرية التي نشأ وتربى فيها الفرد المنتحر، وأهم الأشخاص الفاعلين في حياته، ويمكن للباحث هنا الاستعانة بأفراد المجتمع القريبين من المنتحر، كأفراد الأسرة والأصدقاء وأيضا "الإخباريون" وهم أشخاص لهم مكانة في الجماعة أو المجتمع محل الدراسة ويتمتعون بمعرفة ودراية كبيرة بأمور الحياة الاجتماعية في مجتمعهم ويحظون بثقة واحترام أفراد هذا المجتمع.

رسائل الوداع lettres d'adieu[11]:

لقد أثبتت الدراسات حول الانتحار أن ما يقارب 20 % من المنتحرين يخلفون وراءهم رسائل أو كتابات وهي آخر ما يكتبونه قبل الإقدام على الانتحار، وتكون موجهة في العادة إلى الأقارب أو الأزواج أو الأصدقاء أو من يعثر على الجثة.

(11) -Eric volant, dictionnaire des suicides, liber, Québec, 2001.p195.

هذه الكتابات تتضمن عدة عناصر تعكس جوانب ذاتية للمنتحر وتخيلاته وسيرته الذاتية (Auto-Biographie)، وأوهامه، ومرجعياته الرمزية، ومعتقداته، ومشاعره وعواطفه وحياته الداخلية، قلقة وآماله ورغباته وقيمه، منطقه ومبرراته تجاه الانتحار...

تعتبر هذه الكتابات بالنسبة إلى الباحث أداة مهمة للكشف عن جوانب كثيرة تتعلق بشخصية المنتحر، قد لا يتسنى له الحصول عليها بطريقة أخرى، فهي عادة ما تعبر عن صدق المشاعر وصحة المعلومات التي تتضمنها باعتبارها تسبق مباشرة الفعل الانتحاري ويكتبها أصحابها لتكون آخر حلقة اتصال مع ذويهم والمجتمع الذي يحيط بهم، وهي قد تعتبر رغبة من المنتحر في التواصل مع الحياة ومن فيها.

إنّ القراءة العلمية الدقيقة لهذه الرسائل والكتابات تمكّن الباحث من الولوج إلى أعماق المنتحر ولا تترك مجالا للأفكار التي تعتمد على التخمينات، في تفسير الأسباب والدواعي والحيثيات التي تم فيها الفعل الانتحاري.

إنّ هذه العملية تسمح للباحث بفهم وإدراك كل ما هو مشترك (مواقف، تفكير، أعمال معارف، معتقدات) بين أفراد المجتمع المستجوب والتي يسميها علماء الاجتماع بالحس المشترك، وهو يشمل مختلف المعارف والمواقف وأنماط التفكير والفعل والمعتقدات الشعبية والأساطير والخرافات... التي يشترك فيها كل أو أغلب أفراد المجتمع.

خاتمة:

إنّ رحلة البحث الميداني حول السلوك الانتحاري في مجتمعنا الجزائري، هي شاقة بكل تأكيد، ولا بد على الباحث الذي يريد التقصي حول هذه الظاهرة من التحلي بكل مقومات البحث العلمي وشروطه ومبادئه، وأخلاقه... والتي من بينها على الخصوص، الروح العلمية والاستعداد الذهني[12] هذه الروح وهذا الاستعداد يسمحان له بخوض غمار هذا البحث بأكثر موضوعية وأمان، بعيدا عن منزلقات التفسير التخميني والأفكار الملقنة أو المكتسبة والجاهزة التي قد يفرضها الحس المشترك والمعرفة غير العلمية (العامية)، والتي من المحتمل ألاّ تكون ملائمة للواقع وتساهم بذلك في تغليط الباحث وانحراف مجريات البحث عن الأهداف المرجوة.

إنّ هذا التوجه البحثي حول موضوع الانتحار، والذي سميته "المقاربة الأنتروبولوجية لظاهرة الانتحار في المجتمع الجزائري"، بشقيها النظري (المفاهيمي) والمنهجي (التقني)، ستمكننا بدون شك من تجاوز التفسيرات الكلاسيكية التي أوجدها أكثر من قرن من البحث حول

(12) موريس انجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر، 2004. ص47.

هذا الموضوع، أي منذ أن وضع دوركايم الأسس الأولى للبحث في هذا الموضوع، وتمكننا حينئذ من فهم كيفية توزيع هذه الظاهرة في المكان والزمان وفي ارتباطاتها بالحياة الثقافية والنمط المجتمعي الذي يحيط بالمنتحرين، ورصد عملية الاستمرار والتطور أو التغير الذي يطرأ عليها، في ظل نظم اجتماعية وثقافية معينة، وبذلك نستطيع تحديد وتصنيف ما هو مشترك وما هو غير مشترك من ملامح وسمات للسلوك الانتحاري بين كل الفئات الاجتماعية في المجتمع الجزائري، في جميع المناطق وعبر مختلف المراحل التاريخية، عقد المقارنات بين هذه الظاهرة في بلادنا وغيرها من المجتمعات الإنسانية، وخاصة ذات الخصوصيات البنائية والثقافية المشتركة، كالمجتمعات الإسلامية والعربية مثلا...

المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1- أحمد أبو زيد، محاضرات في الأنتروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1978.

2- بن عمارة الميسوم، ظاهرة الانتحار في الجزائر: أسبابها وآثارها على المجتمع، قسم التعليم العالي، المدرسة العليا للدرك الوطني، وزارة الدفاع الوطني، الجزائر، 2006/2005.

3- بولفلفل إبراهيم، ظاهرة الانتحار في المجتمع الجزائري، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر.2010/2009.

4- جمال معتوق، قراءة سوسيولوجية لظاهرة الانتحار في الجزائر، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولوجية، جوان 2007.

5- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.

6- عاطف وصفي، الأنتروبولوجيا الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت. السنة غير مذكورة.

7- موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تر: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة للنشر، 2004.

المراجع باللغة الفرنسية:

1. Christian Baudelot, Suicide, Seuil, paris, 2006.
2. Christian Fauré, après le suicide d'un proche, Bpi, France, 2007.
3. Eric Volant, dictionnaire des suicides, liber, Québec, 2001.
4. Émile Durkheim, le suicide, 13ème éd, Puf, Paris, 2007.
5. Pierre Moron, le suicide, Puf, paris, 1999.